ابو حامد الغزالي (*)

٥

رأيه في حكمة التكليف ورد شبهات الباطنية عليه (١)

﴿ جواب المسائل الاربع التي سألها الباطنية بهمدان ﴾

(من الشيخ الاجل أبي حامد محمد بن محمد الغزالي رضي الله عنه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلوات الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . سئل ما قول سيدنا الشيخ الامام الاجل ، حجة الاسلام ، شرف الشريعة ، مقتدى الفرق ، امام الائمة ، في هذه المسائل الاربع التي لبّس (بها) هؤلاء القوم الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وموهوا بها استجلابا لقلوب الخلق ، وهي هذه

﴿ المسئلة الاولى ﴾ أليس أهل الاسلام متفقين على ان الباري جلّ ذكره غني عن كل شيء غير محتاج الى شيء مّا . ثم مع ذلك كلهم معترفون بانه كلف العباد العبادة وأقربها فكيف تراك نسبت بحجة العقل ان غنياً عن كل شيء يكلف من لا يحتاج اليه ان يعمل عملاً هو غني عنه ؟ بين لي كيف ذلك لعلي ان أكون من العالمين

﴿ المسئلة الثانية ﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة ونهاهم عن المعصية ليثيب من أطاع ويعاقب من عصى وهذا مستحيل جدا في العقول فأيّ حاجة به الى معاقبة خلقه حتى يدعوه ذلك الى ان يكلفهم أمرا اذا لم يأتوه عاقبهم عليه وان

---

*) تابع لما في الجزء ١٢ م ١٠ (١) عثر على هذه الرسالة في بعض المجموعات القديمة ببغداد عالم العراق السيد محمود شكري افندي الآلوسي فأرسلها الينا لننشرها في المنار فحمدنا سعيه ، وشكرنا فضله ، ونشرناها بنصها ، الا كلمات قليلة علمنا باليقين انها محرفة فرددناها الى أصلها ، وبقيت فيها وقفات تركناها على حالها

كان لا حاجة به الى ذلك فالقول مستحيل جدا لا توجبه حكمة وان كان تعالى به الى ذلك حاجة فما يصنع بالتكليف وهو قادر على ان يثيب من يريد ويعاقب من يريد ؟ فالتكليف أيضا حشو لا توجبه حكمة والحاجة نقص وانه سبحانه وتعالى لا ينسب الى نقص وهو غني غير محتاج "

﴿ المسئلة الثالثة ﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة لينفعهم بها أتراه جل ذكره عجز عن ان ينفعهم بغير التكليف حتى احتاج ان يكلفهم ثم ينفعهم ؟ ان كان غرضه نفعهم فالتكليف ساقط وهو حشو وان كان يعجز عن ذلك الا بالتكليف فالقدرة ساقطة والعجز ثابت وهو محال

﴿ المسئلة الرابعة ﴾ ان الله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون " وهذا باب تحير فيه العقول، هل يجوز ان يأمر حكيم بأمر يخرج عن الحكمة وينبو عنه العقل ثم يحظر على العاقل البحث عنه؟ أليس ذلك ضربا من الجور والظلم لانه جعل الحجة على هذا الخلق العقل وأمر أهله ونهاهم وخصّ غيرهم من البهائم على ما خلقوا عليه بالآلات التي خلقت لها وألهم العقل استعمالها بمثل اللجام الذي تروض الدابة به وغير ذلك من حبالات الصيد والحيل المعروفة التي يطول شرحها ؟ واذا كانت حجة العقل على المكلفين والمأمورين والمنهيين بأمره ثم يكلفون أمرا وينهون من الفحص عنه والتماس سبب يتصور به ما يكلفونه عندهم ويصح في معقولهم ومعلومهم الذي هو حجة عليهم أليس يكون ذلك ظلما صريحا ؟ ووجدنا المتحلين بالعلم من جميع الاصناف يقولون ان الله جلّ جلاله لا يقبل عملا الا على بصيرة فاذا منع العاقل من البحث والنظر أين يكون بصيرا وهل يرجى ان يوحى اليه ؟ هذا منكر من القول لا يعقل وما لا يعقل فليس بشيء . ووجدنا هذا الكتاب الناطق بين الخلق من الحق يخبر في موضع بآية « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » ويخبر في موضع آخر بانه يسئل ويقتضي الجواب في قوله تعالى « ونحشره يوم القيمة أعمى * قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها " وكذلك اليوم تُنسى » فأي سؤال أتم من هذا السؤال الذي اقتضى هذا الجواب ؟ وفي القول مثل هذا كثير والتناقض في مثل هذه الآيات ظاهر موجود اذا لم يعبر عنه

بيان يقبله العقل . فهذه اعزك الله المسائل الاربع قد شرحت لك بعضها فلا بد من قول خامس تصح به التكليفات لان سقوطها أيضا لا يصح . أبن لي ذلك فاني أراك من المحسنين . الى هنا كلامهم فان رأى سيدنا ان يجيب عن هذا ويوضح هذه الاشكالات ويكشف عن هذه التلبيسات حاز به الاجر الجزيل والثواب الكثير ان شاء الله تعالى

* * *

أجاب وقال أما السؤال الاول وهو استبعاد التكليف مع الاستغناء وتوهم التناقض بينهما فمصدره الجهل بحقيقة التكليف فكأن السائل لم يسمع قوله تعالى « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » وقوله « فلأنفسهم يمهدون » وقوله « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها » كأنه ظن ان تكليف الله تعالى عباده يضاهي تكليف الانسان عبده فان السيد يكلف عبده الاعمال التي يرتبط بها غرضه وما لاحظ له فيه ولا يحتاج اليه فلا يكلفه به فكأن هذا السائل ثبت في وهمه قياس فاسد وهو تشبيه تكليف الله تعالى بتكليف عباده فجعل نفسه مثالا لله، تعالى الله وتقدس عن خياله ومثاله، والكشف عن حقيقة التكليف مما يطول ومن اقتبس حقائق العلوم عن رأيه السخيف، وعقله الضعيف، وقياسه الفاسد، كثر تعثره بالضلالات، بل ينبغي أن يطلب حقائق العلوم من أهله وهم العلماء الاقوياء القائمون بحقيقة المعقولات المطلعون على اسرار الشرع العارفون بشروط الادلة والبراهين المستبصرون بمداخل الغرور والتلبيس فيها . واذا كان شرح ذلك مما لا يسمح به عداوة؛ على مثل هذه الاسئلة الضعيفة الصادرة عن ضعف البصيرة فلا علاج للافهام الضعيفة انفع من ضرب الامثلة فلنقتصر على ضرب مثلين .

﴿ المثال الاول ﴾ تكليف الله عباده يجري مجرى (معالجة) الطبيب المريض فانه اذا غلبت عليه الحرارة مرة يشرب المبردات والطبيب غني عن شربه لا يستضر بمخالفته ولا ينتفع بموافقته ولكن الضرر والنفع يرجع الى المريض وانما الطبيب هاد ومرشد فقط فان وفق المريض حتى وافق الطبيب شفي وتخلص وان لم يوفق تمادى به المرض وهلك وبقاؤه وهلاكه عند الطبيب سيان فانه مستغن عن بقائه فكذلك خلق للعبادة الاخروية أسبابا تفضي اليها إفضاء الدواء الى الشفاء وهي الطاعات ونهي

النفس عن الهوى بالمجاهدة المزكية لها عن رذائل الاخلاق مشقيات في الآخرة ومهلكات كما ان رذائل الاخلاط مرضات في الدنيا ومهلكات . والمعاصي بالاضافة الى حياة الآخرة كالسموم بالاضافة الى حياة الدنيا وللنفوس طب كما أن للاجساد طبا فالانبياء أطباء النفوس يرشدون الخلق الى طريق الفلاح لتمهيد طرق التزكية للقلوب كما قال تعالى « قد افلح من زكاها » وقد خاب من دساها » ثم كما يقال ان الطبيب أمر المريض بكذا ونهاه عن كذا وانه زاد مرضه لانه خالف الطبيب وانه صح لانه راعى قانون الطبيب ولم يقصر في الاحتماء وبالحقيقة لم يتمادمرض المريض بمخالفة الطبيب لعين المخالفة بل لانه سلك غير طريق الصحة التي أمره الطبيب بها فكذلك (مداواة) النفوس هي الاحتماء الذي ينفي عن القلوب أمراضها . وأمراض القلوب تفوت حياة الآخرة كما تفوت أمراض الاجساد حياة الدنيا

﴿ المثال الثاني ﴾ ان الملك من الآدميين قد يخص بعض خدمه وعبيده الغائب عن مجلسه بمال ومركوب ليتوجه الى مجلسه تارة لحظ الملك في استخدامه والاستعانة على نظام مملكته ومصالحها به وهذا القسم ونظيره في حق الله تعالى محال وتارة ليتوجه العبد الى مجلسه وينال رتبة القرب منه ويسعد بسببه مع استغناء الملك عن الاستعانة به وتصميمه العزم على ان لا يستخدمه أصلا ولكن ليقربه من نفسه لمجرد حظ العبد والزيادة في قربه . ثم العبد ان ضيع المركوب وانفق المال لا في الطريق الى السيد عد كافرا للنعمة وان ركب المركوب وانفق المال في الطريق متزودا به عد شاكرا للنعمة لا بمعنى أنه نال الملك حظا لنفسه ولكن اراد سعادة العبد فاذا وافق مراد السيد فيه كان شاكرا وان خالف عدت مخالفته كفرانا والله يستوي عنده كفر العباد وايمانهم بالاضافة الى جلاله واستغنائه ولكن لا يرضى لعباده الكفر فانه لا يصح لعباده فانه يشقيهم كما لا يرضى الملك المستغني لعبده الغائب الشقاوة بالذل والفقر ويريد له السعادة بالقرب منه وهو غني عنه قرب منه أو بعد . فهكذا ينبغي أن يفهم أمر التكليف فان الطاعات أدوية والمعاصي سموم وتأثيرها في القلوب ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم كما لا يسعد بالصحة إلا من أتى بمزاج معتدل وكما يصح قول الطبيب للمريض قد عرفتك ما يضرك وما ينفعك فان وافقتني فلنفسك

وإن خالفت فعليها فكذلك قول الله تعالى «من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها»

(وأما السؤال الثاني) فهو فرع من هذا السؤال فان قوله ان الله مستغن في اثابة عبده عن الطاعة وهو لم يتضرر بها يضاهي قول القائل ان الله مستغن في في انشاء الانسان عن الامر بالوقاع وفي انماء الطفل عن الرضاع وفي اشباعه عن الطعام وفي ارواءه عن الشراب وفي تصحيحه عن الادوية فمابانه عاقب بعقوبة الجوع من ترك الاكل وعاقب بالمرض من ترك الادوية وعاقب بموت الطفل من ترك رضاع والده وهذا خيال من يظن ان الله تعالى يفعل ذلك غضبا وانتقاما وليس يدري ان لفظ الغضب والانتقام مستعار ومأوّل وانما غضب الله عبارة عن إرادته الايلام فكما ان الاسباب والمسببات يتأدى بعضها الى بعض في الدنيا بترتيب مسبب الاسباب فبعضها يفضي الى الايلام و بعضها الى اللذات ولا يعرف عواقبها الا الاطباء فكذلك نسبة الطاعات والمعاصي الى آلام الآخرة ولذاتها من غير فرق

وكذلك (السؤال الثالث) ينحل به فان الله تعالى لا يوصف بالعجز عن الاشباع من غير أكل والإرواء من غير شرب والانشاء من غير وقاع والإنماء من غير رضاع ولكنه قد رتب الاسباب والمسببات كذلك لسر وحكمة لا يعلمها الا الله عز وجل والراسخون في العلم وليس ذلك بعجب انما العجب في التعجب من هذا التدبير المحكم والنظام المتقن ولعمري من لا يهتدي الى سر الحكمة فيه يتعجب منه لقصور هدايته ومثاله في التعجب مثال الاعمى الذي دخل دارا فتعثر بالاواني الموضوعة في صحن الدار فقال لأهل الدار ما اركّ عقولكم لماذا لا تردون هذه الاواني الى مواضعها ولم تركتموها على الطريق ؟ فقيل انها موضوعة في مواضعها وانما الخلل في فقد البصيرة (١) و بالجملة فمن لم يدرك الفرق بين التعجب و بين البرهان كثر خبطه وضلاله وليس في هذا الا تعجب محض وان الله تعالى لم رتب الاسباب ؟ ولو رتبها على وجه آخر لتصور أن يتعجب منه جاهل و يقول لم لم يفعل ضده وهذه التعجبات

(١) كذا في الاصل و يظهر ان هنا سقطا وتصحيحه بحسب المعنى ان يقال وانما الخلل في فقد البصر وكذلك الخلل فيما ضرب له المثل في فقد البصيرة . والمثل مذكور في الاحياء ولا أحد سمة في الوقت [illegible]

منبها اوهام العوام ولا يلتفت المحصل اليها بل الى مقتضى البراهين

﴿ واما السؤال الرابع ﴾ ففي ايراده خبط وكأن السائل لم يقدر على ان يفصح عما في ضميره والذي يتحصل منه تعجبات اربع

(التعجب الاول) قوله كيف أمر بالشيء ومنع عن البحث عنه والبصيرة لا تحصل الا بالبحث ؟ وهذا تعجب فاسد فإن العمل يستدعي اعتقادا جازماً أو معرفة حقيقية والاعتقاد الجازم يحصل بالتقليد المجرد عن سبيل التصديق والايمان والمعرفة تحصل بالبرهان والوصول اليها بالبحث ولم يمنع عن البحث كل الخلق بل الضعفاء القاصرون عن الاطلاع على عويصات البراهين ومعاضلات البحث وانما مثال ذلك امر الطبيب المريض (بالدواء) وامتناعه عن ذكر العلة في كون الدواء نافعا ومنعه المريض عن الاشتغال بالبحث عنه لعلمه بانه يقصر عنه فهمه ولو اشتغل بالبحث عن علل الطب لشق عليه وعجز عنه وزاد المرض واستضر به فان وجد على الندرة مريضا ذكيا آنساً بمنهاج الطب وعلل الامراض لم يمنعه من البحث ولم يمتنع عن ذكر المناسبة بين الدواء وبين علته بل اذا علم انه ليس يكتفي بمجرد قوله وليس يصدق بمحض التقليد وتفرس فيه من الذكاء مايفهم به العلة وعلم انه اذا فهم العلة والمناسبة اشتغل بالعلاج وان لم يفهم اعرض عن التقليد وجب عليه ذكر المناسبة والعلة ان كان يريد صلاحه ولم يمنعه عن البحث اذا علم اشتغاله له الا ان ذلك نادر في المرضى جدا والاكثرون يضعفون عن ذلك وكذلك معرفة العلل والاسرار والبحث عنها في الشرعيات من هذا القبيل ،

﴿ التعجب الثاني ﴾ وهو تسخير البهائم للانسان يضاهي تعجب الانسان ممن يمشي خطوات لينظر الى منتزهات ووجوه حسان فيقال كيف أتعب رجله وسخرها لاجل عينه والعين آلته كما أن الرجل آلته فما بال إحداهما جعلها خادمة واتعبها وجعل الاخرى مخدومة وطلب راحتها وهذا جهل بالاقدار والمراتب بل البصير يعلم ان الكامل يفدى بالناقص وان الناقص يتسخر لاجل الكامل وهو عين الحكمة واما قوله ان ذلك ظلم فهو جهل بحد الظلم فان الظلم هو التصرف في ملك الغير والله تعالى لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فلا يتصور منه الظلم بل له

ان يفعل ما يشاء في ملكه ويكون عادلا (١)

﴿التعجب الثالث﴾ أن الشرع كيف يرد بما ينبو عنه العقل ؟ وهو فاسد لان قوله «ينبو عنه العقل» لفظ مشترك فان اراد به أن برهان العقل يدل على استحالته كخلق الله مثل نفسه والجمع بين المتضادين فهذا مما لا يرد به الشرع ولم يرد. وان اراد به ما يقصر العقل عن دركه ولا يستقل بالاحاطة بكنهه فهذا ليس بمحال بل مقصود بعثة الانبياء ارشاد الخلق الى ماقصر عقولهم عنه فليس بمحال أن يكون في علم الاطباء مثلا جذب المغناطيس للحديد والمرأة الحامل لو مشت فوق جبة مخصوصة ألقت الجنين وغير ذلك من الخواص وهذا مما ينبو عنه العقل بمعنى انه لا يقف على حقيقته ولا يستقل بالاطلاع عليه ولا ينبو عنه بمعنى الحكم باستحالته وليس كل ما لا يدركه العقل محالا في نفسه بل لو لم نشاهد النار قط واحراقها فاخبرنا مخبر وقال اني اخلق جبة بحبة واستخرج من بينهما سناً احمر بمقدار عدسة تأكل هذه البلد وغيرها حتى لا يبقى فيها شيء من غير أن يثقل ذلك الى جوفها ومن غير أن يزيد في حجمها بل تأكل البلد ثم تأكل نفسها فلا تبقى لا هي ولا البلد لكنا نقول هذا شيء ينبو عنه العقل ولا يقبله، وهذه صورة النار والحس قد صدق ذلك، فكذلك يستعمل الشرع على مثل هذه العجائب التي ليست مستحيلة وانما هي مستبعدة وفرق بين البعيد والمحال فان البعيد هو الذي ليس بمألوف والمحال مالا يتصور كونه »

واما ﴿التعجب الرابع﴾ وهو انه لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون ثم سئل وقيل « لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً »قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » فمصدر هذا السؤال الجهل بكون « لفظ» السؤال مشتركا فان السؤال قد يطلق ويراد به الإلزام كما يقال ناظر فلانا فتوجه عليه سؤاله (٢) وقد يطلق

(١) المنار: فسر الظلم هنا بما جرى عليه الاشعرية وفيه نظر ظاهر وقد بينا حقيقة الظلم وكونه محالا على الله تعالى في مواضع من التفسير والمنار (٢) هذا ما يعبر عنه الآن بالمسؤلية وهي بمعنى التبعة والمؤاخذة فمعنى كونه تعالى لا يسئل عما يفعل انه ليس لاحد سلطة فوق سلطته فيسأله عن فعله سؤال من يلقي عليه التبعة ويؤاخذه على ما عمل

ويراد به الاستخبار كما يقال سئل التلميذ والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام وهو المعنى بقوله « لا يسئل عما يفعل » إذ لا يقال له: لم؟ قول إلزام فأما انه لا يستخبر ولا يستفهم فليس كذلك وهو المراد بقوله « لم حشرتني أعمى » وهذا القدر كاف في جواب هذه الاسئلة اه والذي أوصي به هذا السائل ان ينظر لنفسه ودينه ويتقي ربه ويطلب عالما مليا بعلم العقل والشرع ليهديه الى الطريق فان من ترقى عن مجرد التقليد بأدنى كياسة ولم ينته الى رتبة الاستعلاء كان من الهالكين فنعوذ بالله من فطانة نزالة وكياسة ضعيفة فان البلاء منه أولى إلى النجاة منها آمين

استحالة المادة

١

﴿ للدكتور خليل سعادة ﴾

كتبها عند إذاعة خبر هذا الاكتشاف

سيبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

او مض من كعبة العلم نبأ خطير ، دوت له أرجاء العالم المتمدن اي دوي ، وعندي أنه اعظم اكتشافات البشر ، وأسمى مابلغت اليه مداركهم ، فلا يحسب بجانبه كشف العالم الجديد شيئا مذكورا ، وما بلوغ القطب الشمالي اليه سوى ألعوبة من ألاعيب الصبيان ، كيف لا وهو الامنية الكبرى التي طمحت اليها أبصار فلاسفة العصور ، والغاية القصوى التي اشرأبت اليها أعناق الحكماء في جميع الدهور ، : حلم رآه أسلافنا في ليل مدلهم بظلمات الاوهام ، فتجلى لنا نورا باهرا يبدد دياجي الجهل وينير بصائر الافهام ، بل قل هو الحق انزل على عيون مبصرة ، وآذان مصغية ، وقلوب واعية ، فزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

نريد بهذه التوطئة الاكتشاف الحديث الخطير وهو استحالة المادة الواحدة البسيطة من عضو الى آخر كما تبين الآن في استحالة بخار الراديوم الى عنصر